السياسة والأخلاق
القديس أوغسطين نموذجا

بن علي محمد[1]

مدخل: الظروف السياسية والتاريخية في عصره:

لقد كان لسقوط روما أثره البالغ على نفسية معتنقي المسيحية عموما والقديس أغسطين خصوصا،واقع وصفه القديس جيروم (345-420م) أحسن وصفا قائلا " إن العالم يهوى إلى الخراب، نعم ! ولكن واعاراه أن نقول إن آثامنا ما زالت حية، مزدهرة إن المدينة المشهورة عاصمة الإمبراطورية الرومانية ابتلعتها نار فظيعة دفعة واحدة، ولست تجد على ظهر الأرض مكانا يخلو من رومان مشردين في مطارح النفي، والكنائس التي كانت لها القدسية يوما قد باتت اليوم أكوام من تراب ورماد ومع ذلك لا تشغل عقولنا إلا رغبة الكسب..."[(1)] ثم يضيف "إني ارتعش فزعا إذا تصورت كوارث زماننا،فقد لبث الدم الروماني مدى عشرين عاما أو أزيد يراق، ...إن العالم الروماني يتهاوى للسقوط[(2)] " هذه الظروف هي التي جعلت القديس أغسطين يقف مدافعا عن المسيحية محملا المسؤولية للغزاة، وهذا ما أكد عليه بقوله "لقد هز غزو القوط "Goth" بقيادة الأريك ALARIC-روما فشعرت بأن هذا الغزو لهو أكبر كارثة، وسعى عبدة الآلهة الوثنية والذين نطلق عليهم عادة اسم الوثنيين إلى إلقاء اللوم والمسؤولية على عاتق الدين المسيحي، واخذوا يجذفون في حق الله بعنف وكراهية،لم يسبق لها مثيل، ولهذا شرعت مدفوعا بالإخلاص لبيت الله في كتاب "مدينة الله " لأرد فيه عن تجذيفاتهم، وظلالتهم "[(3)]،لكن الهدف الوحيد لأوغسطين لم يكن الإجابة على تساؤلات المرحلة الراهنة فقط لقد كان بالتأكيد عليها الدفاع عن المسيحيين المتهمين بأنهم بسبب دينهم جلبوا الكارثة للدولة الرومانية، ولكن مع التركيز أكثر نستنطق الموضوع الحقيقي الذي يتجاوز الظروف الراهن، لأن حادثة الغزو البربرية لا تكمن فقط في تدمير روما (لأن قوات

---

[1] أستاذ محاضر المؤسسة: المركز الجامعي- غليزان

(1) برتراند راسل –تاريخ الفلسفة الغربية –الكتاب 2-ترجمة زكي نجيب محمود.مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر –القاهرة ط2 1968،ص 66.

(2) المرجع والصفة نفسها

(3) زروخي اسماعيل – دراسات في الفلسفة السياسية ص 166.

ALARICلم تبقى في روسيا إلا ثلاثة أيام) لكن فشل المدينة التي بناها روميليوس يرمز بشكل إلى نهاية إمبراطورية وحضارة غلب عليها الانحلال الأخلاقي الأمر الذي جلب نقمة الله لذلك يقول أوغسطين: "ثمة عدد كبير يجهل التاريخ القديم أو يتجاهلونه عمدا،وهؤلاء يتخذون من كل هزيمة في زماننا، المسيحية حجة لمهاجمتها بوقاحة ... فليستعيدوا ذكرى بعض الحروب الكبيرة،التي خاضها الرومان القدامى ...وليكفوا عن التطاول على الله بألسنتهم الفانية "، ولكن الحقيقة التي لا يجب أن لا تخفى علينا هي أن سقوط روما صنع لنا أوغسطين آخر، مغاير في تفكيره لذلك الشخص الذي عاش وألّف قبل السقوط والذي كان لاهوتي خالص في تفكيره، بينما أصبح أوغسطين بعد الهزيمة مدافع شرس عن المسيحية بعدما أدرك أن مصير هذه الأخيرة متعلق بمصير الدولة،منذ التاريخ الذي أصبحت فيه عقيدتها الرسمية، وبالتالي كل ما يهدد الدولة يهددها،وهنا كان على أغسطين اللاهوتي ألا ينشغل بالحياة هناك فحسب،بل الاهتمام بما يحدث في الحياة الدنيا، هذه الأزمة التي عاشها أوغسطين هي التي جعلته يهتم باللاهوت السياسي(1) هكذا إذا سوف يثر الفكر السياسي الأوغسطيني في زمن الأزمة ،فكر سوف يتركز حول نقطة يتفصل حولها التفكير السياسي و اللاهوتي،في ظل تمفصل آخر أساسي، أكثر بين تجربة المدينة الأرضية ومدينة الله، لكن السؤال الذي سيكون موضوع المناقشة أمامنا هو ما هو الدور الذي تلعبه القيم الأخلاقية في الممارسة السياسية على اعتبار أن الغاية النهائية هي تحقيق المدينة العالمية ؟

أوغسطين نبذة تاريخية

ولد أورليوس أوغسطينوس Aurlius Augustinus (وهو اسمه بالكامل) في13 نوفمبر 354م بمدينة Thagaste (تاغاست = سوق اهراس حاليا) من أسرة متوسطة كانت تجمع بين الوثنية والأيمان فقد تزوجت أمه Monique وهي مسيحية من أبوه patric الوثني لكن رغم دلك كان لأمه الحرية في تنشئة أبنائها على ديانتها المسيحية،أما بالنسبة لأوغسطين فلم يكن في طفولته نموذجا،بل كان كأقرانه أبعد ما يكون عن مثل الفضيلة لكن وقع له كما يروى حادث غريب جعله يسوقه إلى الحق،والبحث عن النجاة، ومن أولى حوادث حياته التي يرويها في الاعترافات،حادثة وقعت له في صباه والظاهر أنه سرق الفاكهة مع أقرانه،لهذا نجده يتضرع

---

(1) شاتليه فرانسوا وآخرون -معجم المؤلفات السياسية -ت- محمد عرب صاصيلا-المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع -بيروت
ط 1 1997 ص 113

إلى الله ليغفر له " إلهي انظر إلى قلبي، أنظر إلى قلبي الذي أشفقت عليه وهو في قرار الهاوية ... لقد كانت عملية لعينة ومع ذلك أحببتها، أحببت هلاكي أحببت زلتي، لا من أجل الثمرة في سبيلها زللت،بل أحببت الزلة في ذاتها،يالها من نفس شريرة هوت من السماء طريدة، من حضرتك،لا تنشد شيئا وراء العار بل العار للعار"2(2)، والظاهر أن الشعور بالذنب كان "موضة" العصر فالإحساس بالخطيئة كان قوي في عصره،لكن هذه الخطيئة لم تكن الوحيدة في حياته، فهو يروي دائما في الاعترافات أنه اتخذ لنفسه خليلة كان له منها الولد،(3) إلا أن ما لا يلاحظ على أوغسطين ورغم انغماسه في الشهوات إلا أن دلك لم يمنعه من الجدية في طلب العلم ، حيث برع في البلاغة، وأصبح خطيبا بارزا، ثم أغراه ششرون بالفلسفة فحاول أن يقرأ بمفاهيمها الإنجيل، لكنه لم يجد فيه ما يجذبه- فاعتنق المانوية فهذا المذهب القائل بالثنائية في الكون بين النور و الظلمة وما إنجر عنها من الاعتقاد بوجود إلاهين أحدهما للخير والآخر للشر استهواه، فقد كانت حجج المانوية قوية تعتمد على الاستدلال العقلي، غير أن إعجابه بهذا المذهب سرعان ما خف،ومن اللافت للنظر أن سبب بعده عن المانوية كان علمي ولم يكن عقائدي فقد أكد في الجزء الخامس من الاعترافات "شكه في صحة مزاعم المانوية حول حركة الجرام السماوية،(الكسوف والخسوف ...إلخ)،ولهذا يقول:"وتبعا لذلك زال إقبالي على كتب ماني "لقد وجدت نفسي بين سفهاء، متكبرين،شهوانيين، وثرثارين، أفواههم أشراك زينت بكلمات يسبح بها اسمك .." وسوف نجد هذه الاعتراضات على المانوية في كتابه الشهير "مدينة الله" ومن هنا تبدأ تجربته مع "الأكاديميين"،فبعد قراءته لمقالات "الأكاديميين" لششرون اتخذ الشك منهجا له عازما على عدم تركه حتى يلوح له نور اليقين، رغم أنه ظل يوافق المانويين في رأيهم "بأننا لسنا نحن أنفسنا نقترف الخطيئة، بل توجد في داخلنا طبيعة ثانية هي التي تخطئ .

" أما تجربته مع الأفلاطونية فكانت بدايتها اطلاعه على بعض كتب الأفلاطونيين فهو يقول : "إن الله قد هيأ له إذ ذاك، طائفة من كتب الأفلاطونيين مترجمة من اليونانية إلى اللاتينية، وفيها قرأت ما يأتي ...هو أنه في البداية كانت الكلمة ..."كلمة الله هي النور الحقيقي الذي يضيء كل إنسان جاء إلى العالم " (1)، وهكذا وجد عند الأفلاطونيين وبصفة إجمالية المذهب

---

(2)القديس أوغسطين، الإعترافات، ترجمة الخوري يوحنا الحلو ، دار المشرق ، بيروت ، ط5 ، 1996،ص 34.

(3) المصدر نفسه، كتاب الرابع ،ص 58.

(1) برتراند راسل -تاريخ الفلسفة الغربية – الكتاب 2 ص 72

الميتافيزيقي الذي يقول بالكلمة " Lgos"،ومما يدل على أن الأفلاطونية عبّدت له الطريق نحو المسيحية قوله :"إن الأفلاطونيين رأوا الحق فعلا، ورأوه ثابتا راسخا ساطعا شامل لجميع الأنواع ..." (2)، لكنهم رأوه عن بعد،لهذا لم يستطيعوا أن يجدوا الطريق التي يحتمل أن توصلهم إلى الحضرة الدينية ...لبلوغ أعلى مراتب السعادة الأبدية،من هنا يمكن القول أن أوغسطين استفاد كثيرا من فلاسفة الأفلاطونية المحدثة، وتعلم البحث عن الحقيقة غير المجسمة، ووصل إلى يقين وجود الله الأزلي، واستطاع بفضل هؤلاء الفلاسفة أن يتجاوز النظرية المانوية "فبمجرد قراءة كتب الأفلاطونيين -يقول أوغسطين - توصلت إلى يقين أنك موجود وأنك غير متناه ...كنت متأكدا تمام التأكد من كل ذلك، غير أنني كنت أحس نفسي أضعف من أن أتمتع بإدراكك " أخيرا وبعد صراع طويل وشكوك قوية وتردد قلق أتت الهداية بإزالة الشكوك وهو الأمر الذي عاشه أوغسطين بقوة في قصة الروضة "- وقراءة لخاتمة الإنجيل- جان " john" كخلاصة للعقيدة المسيحية، وهنا يقول أوغسطين معبرا عن زوال الشك " قراءة الكلمات الأخيرة بهذا الفكر، انجلت ظلمات تردي بعدما اعتنق قلبي نور الاطمئنان،ومن هنا كان الدخول للمسيحية سنة 387م، وعمد على يد أستاذه أمبرواز*،هذا وقد كانت أيامه الأخيرة عصيبة، حيث رأى بعينه سقوط مدينة عنابة Hippone في يد الوندال، فلم يشأ أن يغادرها إلى يوم وفاته يوم 28 أوت 430م مخلفا العديد من المؤلفات في اللاهوت والتاريخ و السياسة أهمها:الاعترافات – مدينة الله- مناجيات- الدين الحقيقي ..إلخ .

إن ما يميز القديس عن آباء الكنيسة الأوائل من أمثال جيروم -امبرواز، هو إدراكه أن العالم القديم الذي يعيش في كنفه يتهاوى، الأمر الذي جعله يتجه نحو إعادة بناء الفكر بشكل جديد، هو الشكل الذي سنعرفه من خلال تعرضنا لأهم الأفكار الأوغسطينية خاصة ما تعلق منها بالجانب السياسي، رغم أنه ليس من السهل فصل النواحي السياسية عن اللاهوتية

---

(2) أ. عقون محمد العربي -القديس أوغسطين- مجلة الحوار الفكري-دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع عين مليلة – الجزائر-ع3-2002 ص 123.

*القديس أمبرواز (340-397) من أهم الشخصيات الأرستقراطية .في ميلانو التي دافعت عن الكنيسة بالدعوة إلى الفصل بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية،فاعتبر المسائل الدينية من اختصاص الكنيسة والمسائل المدنية من اختصاص الإمبراطور، بالإضافة إلى هذا اشتهر بنضاله من أجل إعفاء الكنائس وأماكن العبادة من الضرائب لأنها أصلا ليست مخصصة للربح وإنما هي للتقرب من الله .

والتاريخية في حالته،لكننا سوف ننطلق في دراستنا هذه لماذا فكر أوغسطين في السياسة بنظر أخلاقية ؟

فكره السياسي:

واقع الحال أن أوغسطين لم يكن مفكرا سياسيا، ولم تكن عقيدته سياسية في العديد من جوانبها ولكنه رغم دلك قدم أفكارا سياسية كان لها بالغ الأثر في العصور الوسطى ،سواء تعلق الأمر بالدولة المجتمع أو بالمشاكل الأخلاقية ....

أ-المشكلة الأخلاقية

لقد كان تحول أوغسطين إلى المسيحية عن طريق اكتشافه للحكمة بطريق الإيمان، وبداية استقصائها عن طريق التعقل، ولهذا كان التعقل والإيمان يمثلان حجر الزاوية في الفلسفة المسيحية، وانطلاقا من هذا المبدأ تصدى أوغسطين لأهم المسائل الفلسفية في عصره، والمشكلة الأخلاقية يشابه حلها المشاكل الأخرى تماما، من حيث اتصالها بالله،فكما أن الله مصدر الحقيقة فهو كذلك مصدر الأخلاق3(1)، والحياة السعيدة هي النعيم في الله ومن أجله، و لا شيء غير هذه الحياة يسمى سعيدا، فالسعادة والحقيقة شيئان مترادفان لأن مصدرهما واحد هو الله .

يمكن القول أن المسائل الأخلاقية كلها راجعة إلى مشكلة الخير والشر هذه المشكلة التي شغلت تفكير أوغسطين منذ اعتناقه للمانوية فإذا كان العالم من صنع الله وكان الله خير بالذات،فكيف يوجد الشر في العالم ؟

ينطلق أوغسطين من مسلمة وهي أن الطبيعة البشرية خييرة بطبعها وقوة الإرادة التي خلقها فيها الله خيرة أيضا، لأن الله لا يخلق إلا الخير لكن كيف نفسر ارتكاب الإنسان للشر ؟ يفسر أوغسطين ذلك بأن الشر موجود لوجود الخير لأن الاثنان في علاقة جدلية " لا يمكنهما التعايش سلميا فحسب، إنما الشر لا يمكنه أن يوجد من دون الخير ... حتى وإن كان الخير يمكن أن يوجد من دون الشر"(2) هذه الثنائية لا يراها بطرس بطرس غالي وخيري عيسى جديدة عن الفكر الفلسفي وإنما الجديد يكمن في أن أوغسطين سوف يعتمد عليها لتفسير تطور

---

(1) د.الحميل الحاج –الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي – مكتبة لبنان –ناشرون-ط 1 – 2000- ص 79.

(2) د. محمود الخضري زينب - لاهوت التاريخ عند القديس اوغسطين- دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة (ب ط) 1998 ص 96.

التاريخ البشري الذي هو عبارة عن صراع بين الخير والشر مما سوف يترتب عنه بعد ذلك انقسام المجتمع إلى مجتمع سموي وآخر أرضي مدينة الله ومدينة الشيطان.

والشرور ظهرت في العالم بالخطيئة وهبوط لآدم إلى الأرض، وما نتج عن ذلك من تضارب المصالح والرغبات الفردية- مع الإشارة كما تقول د. زينب*الخضيري إلى أن مفهوم الخطيئة سر من أسرار المسيحية، ومفهوم محير للعقل من شأنه إيقاع العقل في دوار جهنمي – فكيف نفسر كون الله خلق آدم خيرا لأنه لا يخلق إلا الخير، فإذا بهذا الأخير يتجه إلى المعصية؟

لحل هذا الإشكال لم يكن أمام أوغسطين إلا التلفيق، عندما لجأ إلى التشبيه لتقريب المعنى فيقول : " إننا نؤمن بأن في الأرض الطيبة يمكن أن ينبت الكرم، كما يمكن أن ينبت فيها الغاب،ومثل الشجرة الفاسدة لا يمكن للإرادة الفاسدة أن تثمر ثمرات طيبة،أي أعمال خيّرة، إلا أن الطبيعة الإنسانية التي هي خير يمكن أن تخرج منها إما إرادة خيّرة أو إرادة شريرة "(1). كان على أوغسطين بعد اعتناقه للمسيحية ، أن يجد تفسيرا مقبولا لفكرة الشر غير الذي تعلمه من المانوية،من هذا كانت فكرته أن "الله خير وهو لا يتغير، وبالتالي لا يفعل الشر، أما المخلوقات فهي وإن كانت مخلوقات الله فإنها ليست ذاته،بل خلقها من عدم، وما هو مخلوق من عدم فليس وجودا محضا، بل هو مزاج من الوجود والعدم ،ولهذا فإن في المخلوقات نوعا من النقص الأصيل ... هذا النقص يولد الحاجة والحاجة تولد التغيير "(2)،هنا سوف أوغسطين بالأفلاطونية للخروج من هذه المعضلة،ونعني بذلك أنه أعطاها فكرة طبقها تطبيقا جيدا " الفكرة هي أن : كل موجود فهو خير ...بما هو موجود، وأن اشر – وهو عدم الخير- هو لا وجود ".

إن الشر نوعان : **خلقي وطبيعي** وهو في الحالتين لا ينسب إلى الله، ولكن الله يسمح به – حتى يعرف الخير – وفيما يتصل بالشر الطبيعي فهو في الماديات، وهو ليس شر بمعنى الكلمة فالأشياء لو نظرنا إليها في ذاتها فإنها خير،فإن قيل إن العالم مسرح للدمار بفعل العوامل الطبيعية كالزلازل والبراكين... فالرد على هذا هو أن الأشياء التي تهدمت خير في ذاتها ولابأس أن تحل بعض الأشياء محل بعض، إذ ما يحسه الإنسان شر لا يخلو هنا من فائدة.

---

*المرجع نفسه ص 95

(1) المرجع نفسه ص 96

(2) بدوي عبد الرحمن –الموسوعة الفلسفية ج 1 – المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع ط 1 1984 ،ص 251.

أما الشر الأخلاقي أو الخطيئة فراجع إلى سوء استعمال الحرية بترك الخير الدائم والإقبال على خير زائل، فهو إذا عدم الانتظام في الإرادة الإنسانية، فالإنسان حر في اتخاذ الطريق الذي يريده إما الخير أو الشر،ومنه فالإرادة علة الخطيئة وهي عدم محبة الله وهكذا فحرية الإرادة إذا نظر إليها في ذاتها أمر حسن، إنما سوء استعمال هذه الإرادة هو الذي يحيلها إلى الشر،لكن أوغسطين ما يلبث أن يعود إلى غموضه عندما يقول: "إن هذا العالم الذي ليس فيه أي شيء واضح تماما، الله وحده هو القادر على التمييز بين أهل الخير وأهل الشر وليس لأهل الخير أن يفتخروا، لأن ما من نعمة تمتعوا بها إلا وجاءتهم من الله "(1) وكأنه يحضر القارئ لتقبل فكرة العناية الإلهية أو اللطف الإلهي الذي طالما أكد عليه أوغسطين،وحصول الإنسان على هذا اللطف شرط ضروري لنجاته (الخلاص)، فالله يدير العالم بشكل مطلق وتام،ومشيئته هي القاعدة لكل المشيئات البشرية التي عليها أن تفعل الخير، ولا تقدم على فعل الشر، ولا تقف ضد إرادة الله، وعلى أساس هذه العناية سوف تسير كل الممارسات داخل المجتمع،وعلى أساسها كذلك سوف يحل أوغسطين المشكلة السياسية.

- المشكلة السياسية:

في المشكلة السياسية يبقى أوغسطين وفيّ لمنهجه فحاول حلها بإرجاعها إلى الله، فنظر إلى التاريخ نظرة شاملة تبلورت بشكل واضح في كتابه "مدينة الله" الذي ألفه كما سبق الذكر للرد على الوثنيين الذين زعموا أن المسيحيين أغضبوا الآلهة لذلك سقطت مدينة روما في يد البرابرة، فيقدم أوغسطين كتابه قائلا : "إن مدينة الله الماجدة المعتبرة تعيش من جهة أثناء الحياة الدنيا على الإيمان شاقة طريقها بين الكفار،ومن جهة أخرى تنتظر قرار الحياة الأزلية بصبر ..."[2] علما أن نظرية العناية الإلهية تشير إلى أن الوقائع التي تجري على مسرح الحياة الدنيا مهما كانت تنوعاتها فإنها تخضع للمشيئة الإلهية فهي التي تشكلها على نحو ما هي عليه، دونما تتركها للفوضى والعبث، وهكذا فلابد من تدخل الإله الحكيم ليخطط الإنسان على اعتبار أن هذا الأخير عاجز عن فعل الخير لنفسه.

---

(1) ماريا قرازيا مارا ، أوغسطين رجل علاقات وحوار-الملتقى الدولي الأول للقديس أوغسطين - عنابة 2001 منشورات المجلس الإسلامي الأعلى الجزائر (ب ط) 2003،ص 260.

(2) أ.دحماني سعيد- أوغسطين من تاغست إلى هيبون -أعمال الملتقى الدولي الأول حول القديس أوغسطين- عنابة 2001 ص 253.

هذا وقد اتخذت نظرية العناية الإلهية طابعا مسيحيا بعد قيام المسيحية،لأن الظروف السياسية كانت مهيئة لظهور نظرية تدافع عن المسيحية،عندما كانت الإمبراطورية الرومانية على وشك السقوط،وكانت الفكرة السائدة – كما ذكرنا- ترجع ضعف الدولة إلى تعاليم المسيحية التي تدعو إلى عدم مقاومة الشر [1] وإعطاء الخد الأيمن لمن صفعك على الخد الأيسر، وهكذا يقول أوغسطين: " إن الحماس الشديد لبيت الرب هو الذي جعله يضع يده على الريشة ليحارب الوثنيين،"الذين كانوا يتهمون الدين المسيحي بأنه السبب في دمار روما والتي عوقبت كما يعتقدون، لأنها تخلت عن آلهتها لكن السؤال الجوهري الذي ينبغي أن يطرح هو كيف تصور أوغسطين المجتمع السياسي باعتباره مسيحي يفكر بلغة لاهوتية من جهة وباعتباره مواطن عايش المصير المأساوي للإمبراطورية الرومانية، وما هو المشروع الذي خططه لخلاص البشر وتحقيق الحياة السماوية وتعليبها على الحياة الدنيوية؟

طبيعة المجتمع :

يرى أوغسطين أن الطبيعة البشرية مكونة من عنصرين هما الجسد والروح، ومن هذه الطبيعة المزدوجة تكون أمور الإنسان مقسمة إلى قسمين،دينية مصدرها الجانب الروحي، ودنيوية مصدرها الجانب الجسدي، ومع ذلك يؤكد أوغسطين على أن الله عندما خلق الإنسان كان يعتزم على أن يصير بني البشر جميعا أعضاء في مدينة الله، ولكن خطيئة آدم غيرت ذلك كله ،لقد انقسم العالم منذ سقوط آدم إلى قسمين قسم يعيش مع الله وآخر مع الشيطان، لهذا يقول أوغسطين "...وبالرغم من التنوع الهائل للأمم المتعددة في الأرض، لكل منها عاداته وتقاليده ،ولغته وأسلحته وملابسه، المتباينة للغاية،فإنه يمكننا القول مع الكتاب المقدس أنه لا يوجد إلا فريقان من البشر أو مدينتان واحدة هي مدينة البشر الذين يريدون العيش وفقا للجسد،والأخرى مدينة البشر الذين يعيشون وفقا للروح "(1) ،ومن هنا سوف يكون تاريخ الإنسانية كله حسب أوغسطين صراع بين قطبي هذه الازدواجية لكن ورغم هذا التأكيد سوف نجده يلجأ إلى إعادة المفهوم الذي طالما أكدت عليه المسيحية وهو وحدة الإنسانية،وحدة دعامتها حاجة الإنسان لأخيه الإنسان"لأن الله خلق الإنسان وحيدا لا ليتركه في عزلته بعيدا عن كل مجتمع ،وإنما ليغرس فيه بشكل أعمق الوحدة الإجتماعية والرابطة الودية التي تتأتي من ...خلال الحب....الحب إذ أساس الوحدة البشرية "، ومن هذا فالمجتمع

---

(3)- صبحي أحمد محمود – في فلسفة التاريخ- دار النهضة العربية للطباعة والنشر (ب ط) 1994 ص 166.

(1) .توفيق مجاهد حورية،الفكر السياسي من أفلاطون إلى محمد عبده ص139 '

ليس مجرد اجتماع آلي للأفراد والجماعات ،ولكنه اشتراك في الفكر والعاطفة " فالشعب هو تجمع العديد من الكائنات الرشيدة متحدين في الأخوة،نتيجة حب مشترك لنفس الأشياء "(2) لقد جعل أوغسطين الحب علة الحياة الاجتماعية ،فهو الذي يحرك الإنسان ليحصل على ما يرغب وبتعدد الحب المشترك تتعدد المجتمعات، أي أن عدد المدن يساوي عدد أنواع الحب،إننا هنا أمام تفكير جديد مغاير تماما لذلك سبق وأن رأيناه عند اليونان ،إن الأمر هنا لا يتعلق بالبحث عن العلل الاجتماعية أو السياسية... وما إلى ذلك إن تفكير أوغسطين يقع على مستوى آخر تماما إنه تفكير مرتبط بفكرة الخلاص التي يرمز لها موضوع المدينتين . مدينة الله والمدينة الأرضية.

نظرية المدينتين :

يحتل موضوع المدينة مرتبة الصدارة في الاهتمامات الأساسية للقديس أوغسطين، فقراءة مؤلفه الاعترافات تبين لنا بوضوح تأثره بالمدينة، فبعد قرطاجنة، نجد مدن مثل روما،ميلانو هيبون ....مدن سوف تتفرق حولها النفس البشرية المعقدة من حيث ولاءاتها فهناك مدن أرضية مثل بابل،روما أو قرطاجنة ،وهناك مملكة الله أورشليم التي هي رمز العهد القديم ،من هذا المنظور سوف يخاطب اوغسطين الناجين من سكان روما بعدما نهب البرابرة مدينتهم وخربوها، إنهم لم يفقدوا أي شيء أساسي بالنسبة إلى حياتهم،وأن الخلاص إنما يتمثل في المدينة الإلهية ،وليس في نقيضها المدينة الأرضية أو مدينة الشيطان،لكن ما هو مؤكد حسب أوغسطين في عرضه لأصل المدينتين "لأن هناك حبين صنعا المدينتين حب الذات لحد احتقار الله صنع المدينة الأرضية،وحب الله لحد احتقار الذات،صنع المدينة السماوية، إن المدينة الأولى تتمجد في ذاتها،أما الثانية فتتمجد في الرب،الأولى تبحث عن مجد آت من البشر،أما الثانية فإن الله الشاهد على الضمير هو مجدها الأكبر "(1) ،إن نظرية المدينتين وبغض النظر عن أصولها الفكرية والعقائدية*، جاءت كما قلنا استجابة لحاجة ملحة حيث كان

---

(2). محمود الخضري زينب-لاهوت التاريخ عند القديس أوغسطين ص 149.

[1] Lancel serge, Saint Augustin, Arthéno Foyard- Paris, 1999, P 552.

* هناك من يرجع أصول هذه النظرية إلى التراث اليوناني سواء في جانبه السياسي أو الفلسفي،كما تشير الكثير من الدراسات إلى تأثر أوغسطين بالمانوية على اعتبارها أن مدينة الظلمة المانوية تشابه المدينة الأرضية عند أوغسطين في حين تمثل مدينة النور المدينة الإلهية، في حين يرى جيلسون أن نظرية المدينتين أوغسطينية معاكسة تماما للمانوية على اعتبار أن أوغسطين يعتبر الشر عرضي وليس أصلي عكس ما ذهبت إليه المانوية،كما أن هناك من يربط هذه النظرية بثنائية المثل الأفلاطونية هذا دون إهمال تأثير التراث اليهودي من

المنطلق مسألة عقائدية ارتبطت بواقعة تاريخية فعلية ليتطور النقاش ليضع التاريخ في سياق أشمل تبلورت من خلاله وبشكل واضح الأوغسطينية السياسية .

لقد أعاد أوغسطين النظرية القديمة التي تقول بولاء الإنسان لمدينتين (2) مدينته التي يعيش فيها ومدينة الله،وهنا يبرز مشروعية السؤال على أي أساس نميز بين المدينة الأرضية ومدينة الله،وما طبيعة العلاقة بينهما ؟

المدينة الأرضية : La cité terrestre

يبدو تعبير المدينة الأرضية (المدينة التاريخية أو الشيطانية)،غامض يحمل في طياته تشاؤم عميق،فهي مجتمع مهيأ مسبقا لتلقي العذاب الأبدي مع الشيطان،وهي من جهة ثانية موطن جميع السلطات،بأخلاقها ومتطلباتها،إنها مدينة الحب الفيزيقي،إنها بعبارة أبسط مدينة الشيطان،وموطن الشعوب الكافرة التي تعيش على حب الذات،وتتكرحب الله،أفرادها يلهثون وراء المعيشة الشهوانية، ويريدون تحقيق كل ما هو جسدي،بعيدا عن الله،وكان منطقيا أن ينسب أوغسطين المدينة الأرضية للشيطان حتى يبرر المقابلة بينها وبين مدينة الله لهذا يقول: " إن الشيطان أمير المدينة الفاسدة بالرغم من استخدامه لشركائه ضد مدينة الله المترحلة في العالم(3) إن معيار التفرقة بين مواطني المدينتين هو نوعية الحب - كما سبق الذكر -المتحكم فيهم " فخاصية المدينة الأرضية عبادة الله أو الآلهة للتمكن بفضل عونها في الحرب والسلم من التحكم في الأرض، لا بالمحبة التي تخلص بل بالشهوة التي تسيطر،إن الخيرين يستخدمون الدنيا ليتمكنوا من التمتع بالله، أما السيئون فيريدون استخدام الله ليتمكنوا من الاستمتاع بالدنيا"، ويذهب في اعترافاته إلى تشبيه أبناء المدينة الأرضية بالمياه المرة فيقول:"فمن ذا الذي جمع المياه المرة في كتلةواحدة؟للجميع غاية واحدة،سعادة زمنية أرضية ،وفي سبيلها يعمل الجميع أعمالا مختلفة، مهما تنوعت الدوافع إلى ما لا نهاية التي تحركهم"(1) إن قابيل CAIN بشهادة الكتاب المقدس كان أول مؤسس "لمدينة"، مدينة أرضية بكل ما يعنيه التعبير من غموض مدينة كان

خلال فكرة شعب الله المختار مقابل بقية الشعوب (أنظر محمود الخضيري زينب – لاهوت التاريخ عند القديس أوغسطين ص 107 وما بعدها).

(2) د. سعيد عمران محمود ، النظم السياسية عبر العصور ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت، ط1 ،1999 ، ص 171.

(3) د.محمود الخضري زينب، لاهوت التاريخ عند القديس أوغسطين ، ص 152

(1) المرجع نفسه، ص 149.

بانيها قاتل أخيه، هنا يرى أوغسطين نموذج البناء الذي ينبغي أن يسير عليه الحال فيما بعد، فروما ستؤسس عندما سيقتل روميوس على يد أخيه روميلوس كما قتل هابيل Abel على يد قابيل ...وهنا تبدو ولادة المدينة مرتبطة بالقتل سواء سبقته أو تبعته (2)من ثم يشير أوغسطين – بعد استعراضه للتعاقب الدوري للعصور - لتأسيس مدن مختلفة ليتوقف بشكل خاص عند مدينة بابل، باعتبارها التعبير الملموس عن الكفر والغرور، لأن برج بابل كان يرمز إلى التحدي،تحدي البشر الذين أرادوا أن يساووا أنفسهم بالله،فغضب عليهم، بأن فرقهم إلى أمم لكل أمة لغة،وهكذا ستبقى بابل الرمز التاريخي للخلط والتشتت الذي يناقض النظام والوحدة،لكن هذه المدينة حسب التبولوجيا السياسية(3) لأوغسطين لم تكن منفصلة عن مدينة الله، بل كانت مختلطة معها،وذلك منذ قابيل وحتى ظهور نبي الله إبراهيم، ثم تميزت عنها فأصبحت المدينة السماوية متمثلة في بني إسرائيل، والمدينة الأرضية في سائر الحضارات،حتى وصلت ذروتها في الإمبراطورية الرومانية،التي كان حكمها الطويل وانتصاراتها جزءا من إرادة الله،باعتبارها تأسيسا ماديا للإمبراطورية الخالدة(4)وهو ما يعني كذلك أن سقوط روما شأنه شأن الأحداث التاريخية الأخرى تحقيق لإرادة الله " لقد أراد الله سقوط روما ليلقن درسا لأبناء مدينة الله،لأن الرومان حققوا مجد روما عندما كانوا يخلصون لها، ويضحون بأنفسهم من أجلها، وما إن تخلوّا عن هذا الإخلاص والتفاني حتى سقطت روما، فليكن هذا درسا للمسيحيين ليدركوا أن عليهم حب وطنهم الحق وهو مدينة الله بنفس إخلاص الرومان وتفاني الرومان في حبهم لوطنهم الأرض، لأن هذا الحب هو وحده الذي سيحقق لهم المجد،أما التخلي عنه فلن ينجم عن إلا الهزيمة والخسارة،أي خسارة مدينة الله " ليصل أوغسطين إلى أنه "بالمسيح ينتهي التمايز بين المدينتين المختلفتين من جديد وتقود كل منهما وحدة عضوية لها أعضاءها في الإنسانية جمعاء لتبقى المدينتان في هذا الزمان متداخلتين وممتزجتين ببعضهما البعض إلى أن يأتي يوم الحساب فيفرقهما(5)

---

(2) شاتليه فرنسوا وآخرون – معجم المؤلفات السياسية ترجمة محمد عرب صاصيلا-المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع –بيروت ط 1 –1997 ص 117.

(3) توشار جان، تاريخ الفكر السياسي- ترجمة علي مقلد الدار العالمية للطباعة والنشر – بيروت ط 2،1983 ص 101 .

(4) عقون محمد العربي –القديس اوغسطين –مجلة الحوار الفكري –ع 3 سنة 2002،ص 126.

(5) Lancel Serge , Saint Augustin P56.

لابد من التذكير أن ما كان في المدن بالنسبة لأوغسطين من الناحية الأخلاقية هو أهلها،هذا التركيز على المواطنين يفترض في نفس الوقت أن تقاس القيمة الأخلاقية للمدينة على أساس ما لهؤلاء المواطنين من خصال،وعليه فإن ما اهتم به أوغسطين بشأن المدن قد تعلق بمدى ممارسة الفضيلة،وبهذه الطريقة يمكن ربط العلاقة بين المدن الأرضية والمدينة السماوية، ولهذا فهو عندما يتحدث عن التعارض بين المدينة الأرضيةوالسماوية لم يكن هدفه نكران حقيقة المدن الأرضية،وإنما كان هدفه تكييف الفضائل البشرية بحسب متطلبات المدينة السماوية،وليس بحسب ما تمليه الرغبة في المجد الدنيوي،وهذا ما يؤكد عليه بقوله : "إن ما يبذله الحاكم الروماني من جهد لتحقيق الأمن ....بإتخاذ جانب الحيطة، واستعمال القوة والعدل،لن يكتب له التوفيق إذا لم يدرك هذا الحاكم طبيعة تلك القيم إلا في نطاق دهري محض(1)، فهو هنا يحذر من الانشغال بالحياة العملية التي تتصل بالسياسة،حذر المنشغلين بالحياة العامة من السعي وراء الشرف والسلطان،ولكنه في نفس الوقت طمأنهم بأنهم لو استطاعوا أن يكبحوا أنفسهم عن شهوات الدنيا فإن السياسة تكون مشروعة، بل تصبح المدينة الأرضية نفسها قريبة من المدينة السماوية، وهنا يثني أوغسطين على الحاكم – ماسيدونيوس- الذي كان يفضل حبه للحقيقة وفعل الخير و عزوفه عن الشرف والسلطان قريب مما يمكن أن يحكم به أهل المدينة السماوية !! وهذا عكس رجل الدولة الروماني نكّاريوس الذي صاغ نموذج حكمه على النموذج الدنيوي فكان أبعد عن المدينة السماوية .

إن المدينة الأرضية في فلسفة أوغسطين ترمز لكل المدن الفاسدة في عصره مدن المآسي والشرور وهي في رأيه كلها باعت نفسها للشيطان وخاصة تلك المدن الواقعة تحت حكم الرومان .من هذه الرؤية التشاؤمية تبرز معالم خطاب أوغسطين ينظر لمعالم مدينة جديدة،مدينة فاضلة تجعل الخير قيمتها المطلقة وترفض في نفس الوقت الإنصياع لأوامر الإنسان الأرضي .

المدينة السماوية: La cité céleste

إن المدينة السماوية التي يعتبر الله مؤسسها توجد في هذا العالم في زيارة بين الملحدين إنها في منفي، فهي تظم البشر الذين يعيشون على الإيمان وينتظرون بصر الوعد بالخلاص ،"إن مواطني المدينة السماوية يعيشون مع الآخرين ولكن ليس كالآخرين" (2) فالكدّ الذي يبذله هؤلاء

---

(1) روبار دودارو "Robert Dodaro " -أوغسطين بين المدينة الدنيوية ومدينة الله- أعمال الملتقى الدولي الأول للقديس أوغسطين الجزائر 2001 ص 90.

(2) شوفاليه جان جاك -تاريخ الفكر السياسي – ص 152.

في سبيل خدمة المدن الأرضية يهدف للراحة والنعيم في المدينة السماوية .فالقيمة الأخلاقية للكد لا تقاس إلا بالهدف المنشود والمتمثل في القضاء على دواعي الكد أي السعادة في المدينة السماوية .

إن مدينة الله تضم كل الذين يربط بينهم حب الله،أي كل الذين يعيشون عيشة الإنسان الملتزم بشريعة الله ."فأبناء مدينة الله(السماء)،إخوة في سلام دائم،لا يتحكم فيه حب الإرادة الشخصية والخاصة، بل تسوده تلك الفضيلة التي تجعل الجماعة قلبا واحدا "، والتي تحقق الوحدة الكاملة وهي الطاعة والتقوى ،لكن معرفة هذه المدينة الإلهية لا تتم إلا عن الوحي والإلهام،فالإله إذا أراد إقامة مدينة فإنه يختار مجموعة من الناس ويرحمهم برحمته ليجعلهم أعضاء في هذه المدينة تجمع بينهم المحبة والمودة، لقد ذهب أوغسطين -كما قلنا - إلى القول بأن البشرية انقسمت منذ آدم إلى نوعين من البشر :نوع يحب الله ويضحي من أجله ونوع يحب الدنيا ومتاعها،لكن أوغسطين وفي عبارة غامضة تظهر مأزق الفكرة في حد ذاتها يقول " إن أبناء مدينة السماء يصارعون الموت طوال حياتهم الفانية ...كما يستحيل عليهم على هذه الأرض معرفة ما إذا كانوا من أبناء مدينة الله أو لا وهم لا يستطيعون كذلك التعرف على أمثالهم، لأن التفرقة بين أبناء مدينة الله وأبناء مدينة الأرض أمر مستحيل بالنسبة للبشر"(1) ،وعليه حسب هذه الرؤية لا يتم التمييز بين المدينتين إلا في الآخرة. لقد رمز أوغسطين لمدينة الله بالأورشليم (مدينة السلام) المدينة الخالدة والمدينة الأرضية رمز لها بابل مدينة الفوضى، وكأنه يدعو مدن الإمبراطورية التي كانت عرضة للدمار إلى التعلم من مثال أورشليم الأرضية (رمز مدينة السماء)،هكذا ففي نظره استطاع بنو إسرائيل أن يقيموا مدينة كانت أسعد من روما،لا لشيء إلا لأن عقولهم وقلوبهم كانت معلقة بقيم المدينة المثالية،و في محاولة لتفسير الموقف المسيحي من الحياة الدنيا يقول اوغسطين :"على المسيحي أن لا يبكي على شيء دنيوي عند اختفائه لأنه في انتظار مملكة السماء الغالية "وكرد على الوثنيين " يشير إلى أن المسيحيين يتمتعون بالجنسية الإلهية،كجماعة مختارة من الله تعيش على الأرض،وليست بالضرورة مرتبطة بالدولة الدنيوية،حتى ولو كانت تعيش فوق الأرض ومرتبطة بالحياة الاجتماعية ،فالمدينة الإلهية موطنها الحقيقي السماء وهي غريبة في هذه الدنيا،حتى وإن كانت تمثلت تمثلا ماديا في

---

(1) محمود زينب الخضري-لاهوت التاريخ عند القديس أوغسطين – ص 154 .

شعب إسرائيل (2) لكنها تتجاوز ذلك فتشمل جميع الذين شاركوا في الحركة الموجهة للعالم نحو المسيح الذي ينتهي عنده – كما أشرنا - التمايز السياسي بين المدينتين. إن مدينة السماء مدينة مستقبلية خُصت للأخيار من فيض العناية الإلهية، وهنا يتجلى الهاجس السياسي المؤسس على النظرة التيوقراطية التي تجعل السلطة بيد الله،وهنا تظهر الكنيسة كأنها هي الجماعة البشرية التي تعمل على بناء مدينة الله،المستخدمة وسائل أهل المدينة الأرضية لا من أجل الاستمتاع بها ولكن لتحقيق الغاية الحقّة وهي الكمال والفضيلة،من هنا ستغدو الدولة، أدنى من الكنيسة وخاضعة لها باعتبارها الهدف والغاية لكنها في نفس الوقت إذا استرشدت في تشريعاتها بالأخلاق الفاضلة، كانت كأداة نظام وسلام ومساعدة للكنيسة" (3).

يجعل أوغسطين مدينته متعالية عن كل ما هو واقعي،نظامها يشبه نظام الملائكة،فلا تخاصم ولا نزاع، وإنما الكل يعيش في تناغم لا مثيل له إلا عند الملائكة ،المواطنة داخل هذه المدينة يحكمها التناغم وفق المحبة الخالصة،ولهذا يقول أوغسطين "فمن أجل رؤية ما يكون عليه شعب ما يجب النظر في موضوع حبه...ذلك أن كل شعب ينفرد بموضوع حب عن غيره، فمن الشعوب موضوع حبها العزة والكرامة ،وبعضها الغلبة والمجد، وبعضها الملذات والطيبات،وهناك شعب موضوع حبه الإله، فذاك هو الحب الحقيقي "، لذلك تكون مدينة السماء هي التي تتجه نحو الأنفس الطاهرة التي موضوع حبها الله، فحب الله وعبادته إنما نتج عنها أن تآلفت قلوبهم أو تجمعت حول شيء واحد "المعيشة مع الله " وفي الله .

إن المدينة النموذج تستقي مرجعياتها من التوراة ومن الأفكار الرواقية لا سيما أفكار ششرون،فالعالم كله مجتمع واحد يتساوى أفراده في كل شيء وبمقدور كل إنسان أن يصبح عضوا في مدينة الله إذا نال رحمته التي لا تتوقف على نوع أو دولة بعينها،كما تحضر الأفلاطونية بشكل جلي في الخطاب الأوغسطيني لأجل التنظير لمعالم المدينة الفاضلة المتمتعة باللطف الإلهي الذي خلص الطبيعة الإنسانية من الخطيئة .

إن أوغسطين عندما يتحدث عن مدينة الله (السماء) كان يقصد الكنيسة الكاثوليكية على الخصوص، بغرض الرد على المذهب الدوناتي،ولكن مع ذلك نلاحظ أنه في مواطن كثيرة

---

(2) كرم يوسف – الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، دار القلم، بيروت لبنان، (ب ط) 1979 ص 46 .

(3) عقون محمد العربي- القديس أوغسطين ،مجلة الحوار الفكري ،ع 3، 2002،ص 127 .

يفرق بين أعضاء الكنيسة و بين أعضاء مدينة الله " فثمة أفراد ينتمون إلى الكنيسة(1) ولكنهم ليسوا أعضاء في مدينة الله لأن الله لم ينعم عليهم برحمته وربما يرجع حرص أوغسطين على هذه التفرقة بين الحقيقي والزائف إلى ظروف عصره الذي أصبحت الكنيسة نقطة استقطاب إثر زوال عصر الإضطهاد مما جعلها صاحبة سلطة سياسية الأمر الذي دفع الكثيرين لاعتناقها لا حبا في الله،وإنما تحقيقا لمصلحة دنيوية(2) ،لكن بعد هذا يبقى السؤال الذي يلقي بظلاله على المذهب السياسي لأوغسطين وهو ما يتعلق بمسألة الخلط بين المدينتين، ففي هذه المسألة تكمن كل الصعوبات فهما من حيث جوهرها منفصلتان،ولكن من وجهة النظر الواقعية يصعب الفصل بينهما (3) ،إلى يوم الحساب،ومن هنا إذا كان التاريخ تجسيدا لإرادة الله ،وفي نفس الوقت تجري وقائعه داخل المجتمعات البشرية فطيف يمكن إذا تصور العلاقة بينهما ؟

مدينة الله وعلاقتها بالمدينة الأرضية:

إنه ليس من السهل الحديث عن رأي أوغسطين في هذا المجال فهو يدعو إلى التميز بين مدينة الأرض ومدينة السماء، بين المدينة التي تعيش على حب الله والتي تعش على حب الذات، إن أوغسطين من جهة يحكم على المدينة الأرضية كما لو كانت مدينة الشيطان، ومن جهة أخرى يؤكد على أن لهذه الأخيرة نظام خاص بها يمكنها من أن تنشد في هذه الدنيا سلما يقوم عليه سلم الآخرة ... وهنا يؤكد بوضوح على العلاقة بين المدينتين يقول:"ينبغي أن نستعمل المدينة الأرضية سلم الدنيا في رحلتها عبر الزمن،فتبحث عن توافق الإرادات البشرية وتحميه فيما يتعلق منه بالحياة الزائلة للبشر،ما استطاعت حتى يتسنى حفظ التقوى والدين،كما ينبغي لها أن تقرب هذا السلم الأرضي من ذلك السلم السماوي الذي هو السلم الحق،"إن هذا الغموض يتواصل عندما نعرف من أوغسطين أنه ورغم التداخل والأخلاط بين المدينتين إلا أنهما ليستا متصارعتين لأن أخلاق أبناء المدينة الإلهية تمنع ذلك وتحول دون دخولهم في صراع مع أهل الأرض ،والحقيقة التي يشير إليها الكثير من المفكرين هي أن تلاميذ أوغسطسن من بعده هم الذين وسعوا الهوة بين المدينتين، أما هو فقد لطف من حدة هذه

---

(1) سعفان حسن شحاتة - أساطين الفكر السياسي ص 109 .

(2) محمود الخضري زينب- لاهوت التاريخ عند القديس أوغسطين ص 161.

(3) Le vocabulaire des philosophes- de l'antiquité à la renaissance- édition ellips – paris – 2002 p. 363.

الثنائية بقوله:"إن الله وحده هو الذي يميز بينهما، وبأن المدينة الأرضية ليست كلها نقائص وعيوب،ما يقال عنها هو أن أمجادها زائلة،وأن ما على الأرض من فخار وسلطان و ما أشبه هي أشياء غير دائمة وأن مزاياها ليست بمزايا وحقائق المدينة الإلهية"(1)،إذا الفرق يكمن في الجوهر أما على المستوى الواقعي" فالحاضرتين تعيشان جنبا إلى جنب منذ بدأ الخليقة إلى أن يفرق بينها يوم الحساب .

إن مدينة الله مشروع يبرز النزاع الأبدي بين المثل العليا (مدينة الله) والواقع الذي نحياه (المدينة الأرضية) المليء بالشرور،وهي من جهة أخرى مشروع لإصلاح السياسة والمدن الفاسدة في عصره إن أوغسطين مدينته متعالية عن كل ما هو واقعي نظامها يشبه نظام الملائكة، حيث يغيب الخصام ويسود التناغم: بهذه النظرة يعكس أوغسطين واقع عصره المثقل بالمشاكل السياسية والعقائدية،إنها دعوة للمدن الرومانية للإرتقاء إلى مصاف مدينة الله،التي لا يتم الارتقاء إليها إلا بالإيمان فالدين الحقيقي هو الذي ينقيها ويجعلها كاملة .

إن المدينة الفضلى عنده يمتزج فيها الخيال السياسي المرتبط بالأخلاق من جهة وتفكير المؤمن الذي يرى العالم من خلال عقيدته المسيحية التي جعلته ينشد عالما أكثر عدلا من العالم الذي كان يعيش فيه إن الأمر كما نرى متعلق بالتاريخ الفعلي لروما لكن من حيث علاقتها بمدينة الله التي هي النهاية الحقيقية للتاريخ،وهنا يبدأ الأمر من وجهة علم النفس التحليلي يعبر عن حالة من تداعي الهواجس السياسية من فيض اللاشعور إنه تعبير عن حالة نكوص أفرزتها الأحداث المأساوية المتمثلة في تدمير روما على يد البرابرة مع الأخذ في الحسبان ما تمثله روما في الوجدان المسيحي،هذا الوجدان الصوفي سوف يمتزج لدى أوغسطين بالطرح السياسي ليؤسس لفلسفة سياسية قائمة على الحدس الإيماني والعمل السياسي، إنها الفلسفة التي تؤسس للتناغم والعدالة وترتبط السياسة بالسلم دون اللجوء إلى القوة والحرب،لكن ومادام الأمر هنا يتعلق بالتفكير في المدينة سواء جانب مدينة الله أو مدينة الإنسان فإنه من الطبيعي أن نتساءل عن مصدر السلطة . و طبيعة القانون داخل هذه المدينة حتى يتحقق العدل والسلام .

مصدر السلطة :

لقد كان أوغسطين يؤمن بأن كل سلطة قائمة على الأرض إنما هي بأمر من الله أي وفق التفويض الإلهي أو العناية الإلهية،" لذلك يقول لا سلطة لشخص على آخر بموجب القانون

---

(1) **زيعور علي – أوغسطينوس – دار القلم، بيروت ط 1، 1983، ص 227.**

الطبيعي" *فالسلطة هي تفويض من الله أو تفويض إلهي لممارسة السلطة"(1)، وقد يقع ذلك بالوراثة أو الإنتخاب،الله لا يعين هذا النظام من الحكم أو ذلك ولا يدل على شخصية ذلك الرئيس أو ذاك،فهذه أمور تفصيلية،والمهم فيها هو جوهر السلطة الموجودة في الوظائف السياسية،وهو جوهر يدين لله بتعيينه وتسميته لقد ربط أوغسطين بين السلطة والأولوهية، فالله ينظم كل شيء،يرفع دولة ويضع أخرى،ويعطي لكل واحدة النظام الذي تستحقه،لذلك كله فإن سير الأحداث يتم وفق خطة إلهية يصبح بموجبها سقوط روما مستحقا عليها،وقد استند أوغسطين في ذلك كله إلى تعاليم بولس الذي دعا دعوة مباشرة لطاعة الحاكم واعتبارها طاعة لله باعتبار أن السلطة تستمد من الله .و من ثمة خضوع الإنسان للسلطة الدنيوية يعتبر امتدادا لخضوعه لربه يقول القديس بولس في رسالته لأهل رومية: "لتخضع كل نفس للسلاطين،لأنه ليس سلطان إلا من الله والسلاطين، الكائنة هي مرتبة من الله، حتى أنه من يقاوم السلطان يقاوم الله...افعل الصلاح يكن لك مدح منه،لأنه خادم الله...ولكن إذا فعلت الشر فخف لأنه لا يحمل السيف عبثا إذ هو خادم الله منتقم،من الذي يفعل الشر لذلك يجب أن يخضع له ليس سبب الغضب فقط بل أيضا سبب الضمير،فإنكم بهذا توفون الجزية أيضا إذ هم خدام الله "(2) وواجب الطاعة هذا يعود في الأصل إلى التراث اليهودي حيث نادت اليهودية من قبل بطاعة الملوك الذين يتم تعيينهم من قبل الإله،وهو لا يتعلق بشخصية الحاكم بل يرتبط بوظيفته بغض النظر عما يكون في شخصيته من نقص ومن هنا وحسب نظرية العناية الإلهية فقد أعطى الله شرعيتها دون أن يضمن الممارسة السليمة لهذه السلطة،لأن كل عمل سياسي إنما يخضع للعناية الإلهية من حيث الجوهر،إن الإله عند القديس أوغسطين هو الإرادة الأسمى وهو مصدر كل حياة، إنه الخير والعدالة والرحمة وهو الفضيلة الخالدة والأبدية، هو فيض المحبة التي تشكل الفكرة المركزية في الأخلاق الأوغسطينية .

و كان من الطبيعي أن ينشب النزاع بين السلطتين الدينية والدنيوية ذلك الصراع الذي وصل مداه من أجل تحقيق مطالب الكنيسة والاعتراف بسمو السلطة الدينية على الزمنية، على اعتبار أن الكنيسة في نظر الفكر المسيحي رحمة من الله،في ظل هذا الصراع سوف يدعى

---

* **حول موضوع القانون الطبيعي أنظر: أ . عبد الكريم أحمد- بحوث في تاريخ النظرية السياسية- معهد البحوث والدراسات العربية ص 53 وما بعدها.**

(1) **د.سعيد عمران وآخرون- النظم السياسية عبر العصور – ص 175**

(2) **د.مهنا محمد نصر – علوم السياسة- دار الفكر العربي القاهرة (ب ث و ط).**

كل طرف أنه صاحب السلطة الشرعية المستمدة من الله،ولهذا سوف يتمسك الأباطرة بنظرية الحق الإلهي وأن الملوك هم ظل الله في الأرض ومن ثمة لا يسألون إلا أمامه، بينما كانت الكنيسة متمثلة في البابا ترى أن البابا هو النائب الأول لصاحب الشريعة.

في حقيقة الأمر وحسب نظرية العناية الإلهية ليست السلطة فقط هي التي تخضع للمشيئة الإلهية بل أحداث التاريخ كلها ومن هنا لا تغدو هذه المقولة مجرد نظرية بل ستصبح عقيدة... ولعل هذا ما دفع بالبعض إلى القول عن آراء أوغسطين "أنها ليست فلسفة ولا تاريخ ... لقد مسخ الحقيقة وجعل البشر كقطع الشطرنج في لعبة على رقعة الزمان بين الله والشيطان(4) ‘إن هذه التيوقراطية تجعل عين الحقيقة عند الله فقط وبالتالي لا يمكن أن نعلم الحقيقة في عالم يفتقر لحضور الذات الإلهية، لكن ومادمنا هنا قد تحدثنا عن السلطة وعرفنا مصدرها يقتضي منا الأمر بالضرورة الحديث عن القوانين التي تستند إليها هذه السلطة لتحقيق العدالة.

فكرة القانون:

يميز أوغسطين بين نوعين من القانون، القانون الأزلي الذي هو النموذج الأسمى للعدالة والقانون الزمني أو الإنساني(5) ويمكن القول بصفة عامة بأن القانون الأزلي هو القانون الذي تنتظم به الأشياء،وما دام أن الله هو الذي يوجه هذه الأخيرة نحو غاياتها النهائية، فهو إذا مصدر هذا القانون،وهو الذي طبعه في نفوس البشر،وبالتالي هم ملزمون بمعرفته وطاعته في كل وقت،لأنه بفضله يجازى الأخيار ويعاقب الأشرار،إن القانون الأزلي قانون ثابت في كل زمان ومكان لأنه منقوش في قلوب البشر منذ البدء ،وهذا القانون الأخلاقي يسمى القانون الإلهي مادام مصدره الله،من هذا المنظور نلاحظ أن أوغسطين جعل القانون الإلهي حقيقة بديهية أزلية كالحقائق الرياضية،ولو نظرنا في تفصيلاته لوجدناه في الكون كله آمرا ناهيا،آمرا باتباع مقتضيات النظام،ناهيا عن عكس ذلك أنه قانون الوضوح والبداهة الذي يرتكز على قاعدتين أساسيتين " لا تعمل بالغير ما لا تريد أن يفعل بك الغير،يجب أن يأخذ كل ذي حق

---

(4) د. صبحي أحمد محمود – في فلسفة التاريخ ص 170-171.

(5) Leo Strauss et josep cropsey –Histoire de la philosophie politique –P.U.F 3ème édition 1999 p. 200.

حقه " (6)· إنه القانون الذي يحمل صفة الوجوب والإلزام من منطلق أن الله يدبر العالم بشكل مطلق ومشيئته هي القاعدة لكل المشيئات البشرية .

إن ما يلاحظ هنا هو أن فكرة القانون أخذها أوغسطين عن الأفلاطونية من جهة ومزجها بالرواقية ومذهب ششرون من جهة أخرى،لأن ششرون مثل أوغسطين فصل القانون الأزلي أو الطبيعي عن القانون الزمني أو الإنساني،وهذا ما أكد عليه في مؤلفه الجمهورية بقوله:" هناك في الواقع قانون حق، هو قانون البداهة والتفكير السليم ،وهو قانون يماشي الطبيعة،ويطبق على كل إنسان وهو قانون خالد لا يتغير. ينبغي للناس بمقتضى أحكامه أن يؤدوا ما عليهم من التزامات وما فيه من أحكام وما فيه من أحكام ناهية يحد من جنوح الناس إلى ارتكاب ما هو خطأ،تؤثر أوامر هذا القانون ونواهيه في خيار الناس دون أشرارهم، وهذا القانون الطبيعي هو مما لا يجوز خلقيا تعطيل أحكامه، بتشريعات من صنع البشر،كما لا يجوز الحد من نطاق تطبيقه،أو إلغاء نفاذه أحكامه،وهو من البساطة بحيث لا يحتاج إلى فقه الفقهاء لتوضيحه...ليس هناك- يقول ششرون- إلا قانون واحد خالد لا يتبدل ملزم لكل الناس في كل وقت"*،يرى أوغسطين أنه نتيجة لمعصية آدم لربه بالخطيئة الأولى انحط من المرتبة التي رفعه الله إليها،وحط معه ذريته،وبالتالي أصبح الإنسان منذ ذلك الوقت خالي من المواهب الإلهية،ذو طبيعة مختلفة جانبها الخير يسير بمقتضى القانون الإلهي أما الجانب الشرير فتطلب الأمر تقويمه،وعليه أصبح من الضروري وجود قانون وضعي يتولى هذه المهمة ،أي أن الطبيعة الخاطئة هي التي اقتضت وجود مثل هذا القانون،الذي شرع لحماية النظام بالقوة اللازمة لإيقاف العابثين والفاسدين،وإصلاح سيرتهم،وتوفير الطمأنينة للخيرين (1)، هذه المهمة هي التي تجعل من السلطة الزمنية ضرورية حفاظا على الحق والنظام .

إن القانون الزمني من هذا المنظور أداة ضرورية ضمانا للنظام في الدولة وخدمة لسيطرة العدالة و السلم والفضيلة،دون أن يخدم الحاكم وبأيد الظلم والقوة،إن هذا القانون الزمني المتغير حسب متطلبات الواقع –رغم أنه يستمد وجوده من القانون الأزلي – هو الذي يميز مدينة عن أخرى ويعطي لها وحدتها المميزة،فالمدن والشعوب ما هي إلا تجمعات بشرية تعيش تحت سلطة القانون الزمني،من هنا يصبح لدينا حسب قول Maxy " نوعان من القانون " نوع إلهي وآخر

---

(6) زيعور علي أوغسطينوس- ص 230 .

* نقلا عن- سعيد عمران وآخرون- النظم السياسية عبر العصر – 172.

(1) محمد علي محمد وعلي عبد المعطي محمد – سياسة بين نظرية والتطبيق،ص 114.

إنساني منبثق من قوانين المجتمع،وإن كان مشوبا بعدالة القانون الإلهي" (2) الواقع أن المشروع الذي خططه اوغسطين لخلاص البشر،ولتحقيق المدينة السماوية وتغليبها على الحياة الدنيوية كان يعتمد كلية على الكنيسة باعتبارها مجتمع المؤمنين وعلى قدرتها على القيام بدورها الإلهي في تحرير البشرية ومن هذا المنظور لم تكن المجتمعات التي عاشت قبل المسيحية دولا بمعنى الكلمة حيث غاب فيها العدل الذي يعني إعطاء كل ذي حق حقه ،فهي لم تكن تعطي لله حقه لأنها كانت توجه الناس لعبادة نحو آلهة غيره أو نحو الشيطان،فلم تكن عند إذن إلا عصابات لصوص، من هنا يعتبر القديس أوغسطين أن المجتمعات التي عاشت قبل المسيح وعلى اعتبار لم تعرف العدل لم تكن دول حقيقية، لأن العدل لم يأتي إلا على يد المسيح عندما نادى بقانون الله (3)،وعلى ما سبق فإذا عاشت المدينة في ظل المدينة الربانية فإنها تحقق العدالة التي ارتضاها الله لعباده،أما الدول التي تخرج عن هذا الإطار – وهي هنا المدن الوثنية فهي دول ظالمة تعتمد على السيطرة والتسلط – لإن العدل والقانون متلازمان، إذ ليس العدل إلا السير وفق القانون أو المعيشة القانونية، والظلم مخالفة القانون أو المعيشة الغير قانونية، ومن ثم اقترنت العدالة عند أوغسطين بالمسيحية " إن العدالة فقط لدى أولئك الذين يعبدون الله أي لدى المسيحيين "، فهم وحدهم الملتزمون بالشريعة التي عنها تنتج العدالة التي تؤدي إلى التسامح وتنبذ القوة والعنف.إن الفكر السياسي الأوغسطين – إن صحت هذه التسمية – سوف يؤسس لفلسفة السلم ويرفض الحرب،ويؤكد ألاّ علاقة بين السياسة والحرب،بمعنى أن السياسة يمكن أن تنشأ دون اللجوء إلى القوة والحرب لكن كيف سيؤسس أوغسطين لسلام في مجتمع يسوده الأنانية وحب السيطرة والتملك ؟

فكرة السلام:

يبقى أوغسطين وفيّ لمشروعه مدينة الله – المدينة الفاضلة،مدينة الراحة والطمأنينة، ومن أجل التمكين لهذا المشروع راح يبحث عن المبدأ الكفيل بتوجيه الحياة الدنيوية تحضيرا للحياة المستقبلية في مدينة الله،فكان السلام هو "حجر الزاوية لمدينة الله "(7) التي تعيش في المنفى على الأرض في انتظار قدوم الخلاص،وهذا لن السلام حسب أوغسطين لم يتحقق في روما

---

(2) المرجع والصفحة نفسها .

(3)سعفان حسن شحاتة –أساطين الفكر السياسي ص 112.

(7)- servier jean histoire de L'utopie. Edition Gallinard p - 1991. 77

رغم قوتها،لأنها تحتاج للإيمان والمحبة والسلام الدائم،وليس سلام الشياطين،سلام الظالم القوي الذي يحب سلامه الخاص ويكره سلام الإله العادل .

إن كل مجتمع غايته السلم والطمأنينة،لأن السلم هو المبدأ الأول للنظام حيث يجد الإنسان سعادته "فالسعادة في السلم والسلم في العدالة،والعدالة في الحب والحب في الفضيلة "(8) من أجل هذه الغاية تصبح الحرب، ورغم مناقضتها لرغبة المجتمعات أمر مشروع ومحتاج إليه لتوكيد السلم والتمكين له ،وهكذا فإن الاقتتال بين المجتمعات يهدف في نهاية المطاف لا للقتال في حد ذاته بل يهدف إلى الرغبة في السلام والعيش الطبيعي، إذا الحرب من وجهة النظر الأوغسطينية وسيلة لا غاية، إن المجتمع الآمن حسب- نظرية العناية الإلية – هو الذي يسير في انسجام مع مدينة الله : بحيث يتصرف الأفراد وفق القانون الأزلي الذي يعطي لكل ذي حق حقه،وعليه فالسلام لا يعني شيء آ خر غير النظام والاتساق في كل شيء فسلام الجسم في سلامة أعضائه وسلام النفس في توازن شهواتها...بل وحتى الإنسان نفسه في حاجة إلى ذلك الانسجام بين الجسم والنفس،أو بين العقل والشهوة، ولاشك أن الأجزاء عندما تنسجم مع بعضها البعض يؤدي ذلك إلى انسجام الكل، ونحن لو درسنا كل المجتمعات لرأينا أنها تنشد السلام والأمن...لكن أوغسطين عندما يتحدث عن السلام يفرق بين سلام المدينة الإلهية ،"لأنه يعلم جيدا أن الناس على هذه الأرض لا يعرفون السلام الحقيقي،لأن سلامهم مؤقت ذلك لأن أفراد المدينة الأرضية غايتهم القصوى الوصول إلى إزالة ما يقع بينهم من خلاف،أما هدف أفراد السماء فهو تحقيق السلام مع الله عن طريق الألفة والمحبة والتعاون،لكن هدف السلام لا يتوقف عند هذا الحد،بل يتعداه إلى أن يكون الناس في سلام دائم مع الله - بهذه الفكرة يكون القديس أوغسطين قد سبق العديد من الفلاسفة الغربيين الذين راودتهم هذه الفكرة من أمثال كانط وراسل - ولكن من المرجع أن يكون أوغسطين قد أخذ هذه الفكرة عن أفلاطون الذي كان يدعو إلى السلام رغم ما خصصه لطبقة المحاربين حيث يقول "ليس رجل السياسة محترم ذلك الذي يوجه كل هدف للحرب،فالمشرّع الفذ هو الذي ينظم الحرب قصد الوصول للسلام،لا أن ينظم السلم قصد الوصول للحرب'فأفلاطون يعتبر الحرب بين الدول ضرورية أحيانا لكنها ليست خيرا في ذاتها،بل تنشأ عن فساد الدول،وعلى ذلك يتصور أفلاطون أن الحرب يمكن منعها في عالم

I (8) p.bid 75 .

وصلت فيه الدول إلى الكمال،وهذا عين ما ذهب إليه أوغسطين معتبرا الردع أمر ضروري لتطبيق القوانين،وحفظ النظام حتى لا يتفشى الظلم، وتتعزز قوة الأشرار ،،ويتألم الخيار.
إن فكرة السلام العالمي هذه لا يجب النظر إليها بمعزل الشريعة والناموس الإلهي، مادام الإله هو الحاكم،وهو مصدر النظام وعليه، لو عرفت كل الدول هذا النظام وعملت به واحترمته لساد السلم "فكما أن الله أمر الفرد بأن يحب جاره كنفسه ويحب زوجته وأبناءه وعائلته بالمثل،وكل الناس المحيطين به، كذلك أمره بأن يكون في سلم وإئتلاف مع كل الناس"،وهذا لا يتأتى إلا بالحب الإلهي الذي يجعل الفرد يتخلى عن أنانيته .

مراجع البحث:

[1] برتراند راسل –تاريخ الفلسفة الغربية _الكتاب 2-ترجمة زكي نجيب محمود.مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر –القاهرة ط2 1968.

[2]) زروخي اسماعيل – دراسات في الفلسفة السياسية

[3]) القديس أوغسطين، الإعترافات، ترجمة الخوري يوحنا الحلو ، دار المشرق ، بيروت ، ط5 ، 1996.

[4]) أ. عقون محمد العربي –القديس أوغسطين- مجلة الحوار الفكري-دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع عين مليلة – الجزائر-ع3-2002 .

[5]) د.الحميل الحاج –الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي – مكتبة لبنان – ناشرون-ط 1 –2000-

6) د. محمود الخضري زينب - لاهوت التاريخ عند القديس اوغسطين- دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة (ب ط) 1998.

[7]) بدوي عبد الرحمن –الموسوعة الفلسفية ج 1 – المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع ط 1 1984 .

[8]) ماريا قرازيا مارا ، أوغسطين رجل علاقات وحوار-الملتقى الدولي الأول للقديس أوغسطين - عنابة 2001 منشورات المجلس الإسلامي الأعلى الجزائر (ب ط) 2003.

[9]) أ.دحماني سعيد- أوغسطين من تاغست إلى هبيون –أعمال الملتقى الدولي الأول حول القديس أوغسطين- عنابة 2001 .

10) صبحي أحمد محمود – في فلسفة التاريخ- دار النهضة العربية للطباعة والنشر (ب ط) 1994
11) د.توفيق مجاهد حورية،الفكر السياسي من أفلاطون إلى محمد عبده ص139 ·
12) د. سعيد عمران محمود ، النظم السياسية عبر العصور ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت، ط1 ،1999 .
13) شاتليه فرنسوا وآخرون – معجم المؤلفات السياسية ترجمة محمد عرب صاصيلا-المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع -بيروت ط 1 –1997 .
14) توشار جان، تاريخ الفكر السياسي- ترجمة علي مقلد الدار العالمية للطباعة والنشر – بيروت، ط 2، 1983
15) عقون محمد العربي –القديس اوغسطين –مجلة الحوار الفكري –ع 3 سنة 2002،ص 126.
16) كرم يوسف – الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، دار القلم، بيروت لبنان، (ب ط) 1979 .
17) عقون محمد العربي- القديس أوغسطين ،مجلة الحوار الفكري ،ع 3، 2002.
18) سعفان حسن شحاتة - أساطين الفكر السياسي
19) زيعور علي – أوغسطينوس – دار القلم، بيروت ط 1، 1983.
20) د.مهنا محمد نصر – علوم السياسة- دار الفكر العربي القاهرة (ب ث و ط).

المراجع باللغة الفرنسية:

(1) Lancel serge, Saint Augustin, Arthéno Foyard- Paris, 1999,

(2) Le vocabulaire des philosophes- de l'antiquité à la renaissance- édition ellips – paris – 2002

3) Leo Strauss et josep cropsey –Histoire de la philosophie politique –P.U.F 3ème édition. . 2000